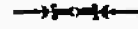


تلك سبباً !^(*)

للأستاذ محمد عبد الله الحمودى



هناك نحو الشرق من سماء عاصمته اليمن ، على بعد خمسة أيام فوق متون المطايا ؛ تمتد منطقة واسعة الأطراف ، مترامية الأكتاف ، عاصرة بأسرار تاريخ ، وفيرة بمحيث ماض سيد ، يجد فيها عالم الآثار مادة خصبة وغنماً واسعاً فسيحاً لاختباراته وأبحاثه في تلك البقعة الساحرة المسحورة التي فاضت عليها أنفاس الرياح النرائب فطمرت معالمها ، وأخفت ماشخص منها ، ونسجت عليها أثواباً رقيقة شفافة من الطلى الأملس ، تلبد في ذمة التاريخ وتحت أنقاض المصور خرائب سبأ ، مدينة الملكة العظيمة بلقيس عروس سليمان ابن داود ...

هذه بقاع منسية في جزء مهم من بلاد العرب ، لعبت أدواراً خطيرة في مجال التاريخ القديم ؛ تدل الآثار الضئيلة التي قد بقيت هذه الأراضي الضئيلة التي جاءت من قبيل الصدف بأن ما تحويه في أحشائها يفوق الوصف ، ويشير التاريخ !

ومعلوماتنا عن هذه البلاد السبئية ضئيلة ؛ فبالرغم من كثرة الرواد الذين اجتاحتها هذه البلاد فإن خطراتهم بين خرائبها كانت سرية خائفة ، فلم يعرف عنها إلا أشياء مقتضبة مشوهة لا تقوم على إسناد على ركن إليه الباحث ، وتطمئن له نفس النقيب ؛ وهذا هائد إلى طبيعة الأرض وجفوة سكانها وقساوتهم ضد الأجنبي ... وما عرفنا أحداً تغفل في صميم هذه البقاع سوى

(*) فصل من كتاب « أسرار حياة بلاد العرب السعيدة » الذي كتبنا منه في هدى ٣٠٩ ، ٣١١ من الرسالة وقد لحصنا هذا الفصل بصرف .

المهارة ؛ ليعلموا : أن لو كان أمر من أمور الرجال يقوم بامرأة لقام بهذه السيدة الحصيصة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والصلاح ما لم يؤته رجال كثيرون . وبقيت حرب الجبل مناراً في تاريخ المسلمين كلما تزغ بهم من الشيطان تزغ فهموا أن يخرجوا بالمرأة عما خلق لها وخلقت له ، قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة في أول تاريخنا فما بقا من حاجة إلى أن نهرق في سبيلها دماء جديدة ؛ وسن لنا مع هذا يمثل السيدة عائشة (دمشق)

صبر الارتفاع

ثلاثة من الأوربيين أناحت لهم الظروف الوصول إلى قلب مدينة سبأ فجمعوا كتابات كثيرة جداً منقوشة على الصخر الأصم

هؤلاء الأشخاص هم أرنود Arnaud (١٨٤٣) وهاليني Halevy (١٨٦٠) ثم غلازر Glaser (١٨٨٨) . وبعد هؤلاء

الباحثين لم يتقدم أحد من الأوربيين مطلقاً . فبقيت أرض سبأ إلى هذه الساعة محتفظة بأسرارها الرهيبة الماثلة ...

هناك في الساحة الغربية من مدينة بلقيس ؛ بنى السبئيون في أحد الأودية العظيمة سداً عظيماً ، متين البنيان ، وطيد الأركان ، مشمخر الأنف ، تتجمع فيه أمواه السيول النحدرة من أعالي الجبال قسقى الأرض ، وتحمي الضرع ؛ حتى غدت هذه البلاد مثلاً سائراً في خصوبة الأرض ؛ وكرم التربة !

أما أبرز المظاهر الاقتصادية التي كان يتداولها سكان هذه البلاد مع الأمم التي تناوهم فهي تلك الأعواد المطرية الفواحة ، والنباتات السكرية التي تنفوخ بها أوديتها العميقة وشمايها الشجرة المطرة وبنائهم في غاية الفخامة والجلال ؛ قصور شاهقة ، وبناء محكم ، وحيطان وسقف مموهة بالأحجار الكريمة ، مرصعة بالعاج ؛ وآتيهم من الذهب والفضة الخالصين ... !

ولكن السبئيين كانوا يبدون الشمس^(١) والقمر والرعل^(٢) والمجل^(٣) ؛ ولهم معابد ضخمة واسعة منتشرة في كل الأنحاء ؛ ثم لما بطروا بأنهم الله عاقبهم الله بأنهار السد ، ففشى المدينة من الماء الجارف ما غشيها فجعل عاليها سافلها ، وأهلك سكانها وأباد ضرعها وزرعها فكانت مثلاً

ويعد أنهار السد حدثاً عظيماً في تاريخ الشعب العربي ؛ ذكره (القرآن الكريم) في جملة ما ذكر من القصص ؛ ومع كل هذه الحقائق التاريخية الثابتة أصلاً فإنها لم تثر في تفكير

(١) في القرآن حكاية من لسان المدهد « إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتني وتومها يسجدون للشمس من دون الله الخ »

(٢) هذا الحيوان لا شك أن له أثراً عظيماً في تاريخ تلك البلاد فقد جاء رسمه في بعض النقوش ؛ وصوره لا تزال محفورة في جبال حضرموت الصخرية اليوم . ويوجد بكثرة في جبال حضرموت وهو قنيس الحضارمة الوحيد !

(٣) ويجب أن نصير هنا إلى أن المجل « أيس » معبود المصريين القدامى قد ورد ذكره في أبجد النقوش الجبيرة التي نشرها الأستاذ مرغليوث الانجليزى « العرب »

ودفعت المغامرة غيره في وقت قريب ، فوصل هذه الأرجاء
فمثر على شظايا أثرية ، رتمائيل عجيبه لدى جماعات من البدو قابتها
منهم وشحن منها صناديق ...
وكل من لاقته في هذه البلاد وسألته عن أسباب هذه
المتاعب الجسيمة التي يلاقيها الرحالة في أرض سبأ راح يشرح لي
أسباباً كثيرة ، وأموراً غريبة !



(ش ١) رأس آدمي من البرنز

أخبرني أحد العلماء قال : « هناك في أرض سبأ تعيش قبائل
ضعيفة من البدو لا يعلمون عن العالم شيئاً ، بل يجهلون كل الجمل
من حولهم ؛ يعبدون الله ولكن على صورة تخالف ما عندنا ،
ويأكلون اللحم النيئ ؛ وفي قبائلهم تعيش جماعات من النبلاء
والأشراف يستبدون بالضعيف ، ويسخرونه في حرث الأرض ،
والدفاع عن الحوزة ؛ لهذا ترى من الحكمة ، وسداد الرأي ، أن
الإمام مصيب في منعه الأجانب من دخول هذه الأقاليم الرهيبة
التي لا تعرف من سلطة الإمام إلا القليل ... »

وتشرفت بالثول بين يدي الإمام ، وبما أنه معروف عن جلالة
الطبع السمع . واخلق اللين ؛ فقد بادته بهذا السؤال :

الينيين وتغير مجرى اعتقادهم في أن يبيدوا إلى الوجود وإلى ضوء
الشمس آثار ذلك الماضي اللعاع المجسم في خرائب هذه المدينة
ذات الجلال والإبداع ، ولم يفكروا مطلقاً في استنطاق هذه
الآلواح السخرية النقوش عليها حرف « السند » ليعرفوا حقيقة
الماضي البعيد

أما علماء الآثار الذين مكنتهم الظروف فاخترقوا هذه الآفاق
واستهدفوا لضروب من المتاعب والأخطار ، فما استطاعوا
أن يقدموا لنا عن هذه البلاد إلا معلومات ضئيلة لا تنفي غلة
الباحث الصادي

نعم ، إن إمداد غلازدر نجح في مهمته ، وتنكر في شخصية
مسلم واستطاع إبان وجوده بصنماء أن يتفق مع أحد أشراف
مأرب ليكون له قائداً ودليلاً إلى حيث السد
فن صنماء أخذ الاثنان طريقهما في واد عميق يقع بين ذرى
بلاد زهم وخولان^(١) ؛ ثم انحدرنا إلى وادي شبوان فأخذنا
طريقهما إلى خرائب السد ومن هنا تابعا سيرهما في ثلاث ساعات
إلى مركز الحضارة السبئية : مدينة بلقيس !

وترامت أخبارها بين القبائل المتمصبة المتحمسة فمقدوا
الزعم على ذبحه وذبح دليله . ولكن غلازدرى بتحقيقه الأمر
فاحتاط لنفسه كثيراً فكان يقوم ليلاً ويختفي نهاراً ... ولما انتهى
من أبحاثه وهم بالرجوع هاجته جماعة من البدو المسلحين ولكنه
نجا بأعجوبة !

وبالرغم من هذه المتاعب الكثيرة التي صادفت هذا المغامر ،
وبالرغم من افتقاره لآلات العلمية المتممة لأبحاثه فقد نجح هذا
العالم الأسرني^(٢) في طرق اختباره فجمع ما يناهز ٨٥٠ نقشة
رحبيراً وبان لعلماء الآثار أن هذه المنطقة ، من أرض سبأ ، غنية
بآثارها عميقة في أسرارها !

أما الإمام يحيى فقد توعد بالمقاب الصارم كل من تحدته نفسه
ببيع دمه الحفريات للأجانب ؛ كما أنه أقفل أبواب سبأ في وجوههم
ولكن أحد^(٣) هؤلاء المجازفين حاول الوصول إلى مأرب من
حضر موت فاكشف أمره وقبض عليه ، ودفع إلى ما وراء الحدود !

(١) من قبائل اليمن

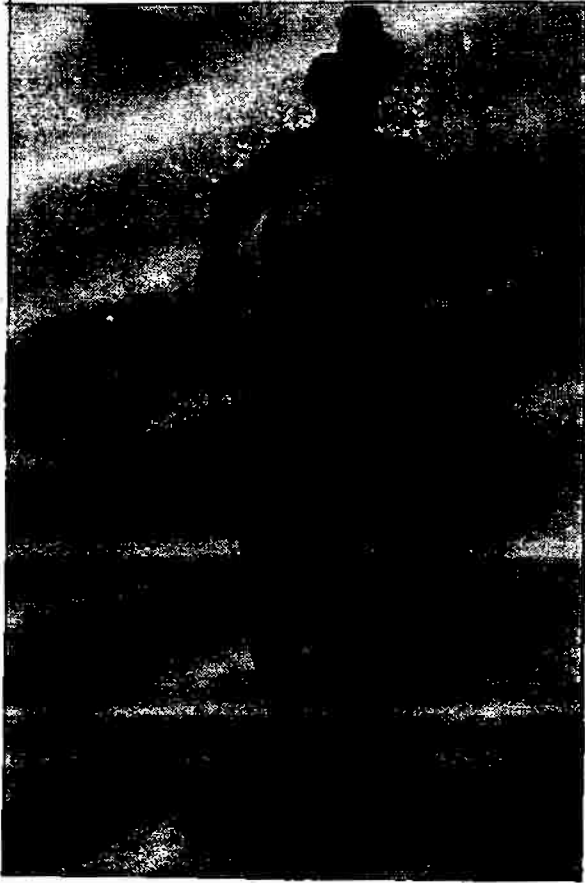
(٢) نسبة إلى أوستريا في قلب أوروبا

(٣) هو السامع الجرمني هاس فون هيلبرس وقد أصدر مؤلفين عن

حضر موت باللغة الألمانية

فهناك نقوش كثيرة وقطع من الفن الهندسي الرائع ،
وتماثيل ضخمة منحوتة من الصخر جميعها الدكتور أنسالدى^(١)
أثناء رحلته إلى بلاد اليمن أخيراً واستطاع أن يأخذها إلى إيطاليا
بموافقة الإمام !

أما المتحف الذي أنشأه الإمام يحيى في العاصمة اليمنية فهو
عبارة عن (غرفة ١) من قصر خصص لزول البعثات الأجنبية
تكدس في هذه الغرفة آثار اليمن القديمة !



(ش ٢) تمثال يطل على البحر

ولما كانت هذه الغرفة محرومة من المساند والمناضد فقد
طُرحت أرضاً هذه النقوش والقطع الأثرية ؛ وبعضها مرصوص
على جوانب الجدران ؛ والجزء الأعظم من الآثار الصغيرة محشو
في أجناف صناديق النُفُط ...

(١) هو الدكتور فيصو أنسالدى ساح في اليمن قبل السنيور آيوتنى
وله كتاب (اليمن : في الحرافة والتاريخ) باللغة الإيطالية . وقد أخذنا منه
الصورتين للنشورين في هذا العدد .

— هل يأذن لي صاحب الجلالة في زيارة بلاد سبأ ؟
ولشد ما كانت دهشتي عظيمة عند ما رأيت ابن حميد الدين
يستوى في جلسته ثم يصيح بي قائلاً :

— سبأ ؟ أرى أن مشاهدتك واستكشافك هنا خير وأولى !
أمكث في صنعاء إلى ما تشاء ! وإذا لم يعجبك هذا فدونك ما حولينا
من القرى الجميلة ، والأودية النضرة ، فانهب من الجمال ما شئت
ولا ناظريك من محاسن الطبيعة اليمنية !

— ولكن يا مولاي ، أريد سبأ ، فهل تركني أذهب إليها ؟
— لا ! إن سبأ بعيدة النال ، صعبة الوصول ، فأنا لم أراها
منذ سنين ، وزيادة على ذلك فاهناك طريق واضح ؛ فهل من المعقول
أن أتركك تذهب حيث لا طريق معبد ؟ أنا أريد أن أراها ولكن
لا سبيل إلى الوصول إليها ... هناك حتى يومنا هذا لا يزال جزء عظيم
من بقايا السد قائماً في شكل بشر الإحجاب ! تصور جيداً أنه شيد
كله من الصخر الأصم ؛ وهذه الصخور تتألف من ثلاثة ألوان :
خضراء وحمراء وشهلاء ... وعلى مقربة من السد تقوم بقرة عظيمة
حفرت جداول توزع منها المياه إلى الحقول والبساتين التي جمع منها
السبتيون كل غنم وجاههم !

— والمدينة يا مولاي ؟

— حطما السد وغزتها المياه من كل جانب ففقرتها
رواسب كثيرة شفاقة ، وما زالت أطرافها شاخصة في عظمة
واستكبار ... فهناك على مساحة عظيمة تطفو على وجه الأرض
أعمدة وأحجار ؛ وأجل هذه الآثار شغوصاً « عرش بلقيس »
ذلك المبد العظيم الذي شيده سليمان للملكة سبأ ... واليوم عزمت
على تعبيد الطريق من صنعاء إلى مأرب فتخترقها السيارات بسهولة !

إن الآثار المدهشة التي تكشف عنها بلاد العرب الجنوبية
تراها اليوم موزعة بين متاحف أوروبا ؛ وليس لها أثر كبير في بلاد
اليمن اللهم إلا أشياء ضئيلة في متحف صنعاء مجموعة في نظام يستدر
الشفقة ، ويبت الحسرة !

ففي متحف Terme بروما يمكنك أن تتمتع بمشاهدة
آثار سبأ ورحير وسائر عمالك اليمن القديمة ...

وأبناء تلك البلاد على وضع فني جميل يشبه إلى حد ما أحسن التماثيل الإغريقية القديمة ، وقد وجد في غيان^(١)

والثاني (ش ٢) تمثال عظيم مصوغ من البرنز وجد في خرائب النخلة^(٢) الحمراء يمثل بطلاً عارياً منسجم الأعضاء جليل الصورة . وما يدعو للأسف أن المال الأغوار أثناء الحفر تناولوه بالتهشم فذهب شيء كثير من روعته ، ولكن الآن لحسن الحظ أعيدت صورته الأولى ، وأجبرت ركسراته وصقلت حواشيه ، واستقام على قدميه بقوة أسلاك معدنية

والحق أن مثل هذه الآثار كثيرة الوجود تحت الانقباض وفي بطن الأرض ولكنها تتطلب مجهوداً عظيماً يكلف كثيراً في بلد يقوم على هذا الوضع من الحياة والعزلة

(القاهرة) محمد عبد الله الصمودي

(١) مدينة أثرية على بعد خمس ساعات إلى الجنوب الشرقى من صنعاء

(٢) بلدة تقع على مقربة من غيان

والزائر الذي يأتي لمشاهدة هذه الآثار لا يسمح له بدخول هذه الغرفة بل يقوم الحارس بعرض بضاعته من الداخل فيطرحها على أرض الشباك بحيث يتمكن الزائر من المشاهدة والملاحظة وهو في الخارج ؛ وفي أغلب الأحيان تملص من يدى الحارس بعض التماثيل فتتهوى إلى الأرض محطمة ؛ وفي جلافة وعدم مبالاة ، يركلها برجليه إلى إحدى الروايا !

إن الله وحده الذى يعرف كم تحوى هذه البقاع الخفية من الآثار والتماثيل ذات الجلال والسمو . وما ذلك الفن السامى الذى ازدهر في هذه الربوع التمثيل في هذه الخرائب الأبدية وفي هذه التماثيل المديدة للنساء والرجال المفرغة في الرمر الحر والرخام المجزع ، إلا صورة حية ناطقة لذلك الفن الرفيع العريق في هذه البلاد منذ أقدم المصورا يدلنا على هذا كله وجود تماثيل في متحف صنعاء بلنا حد الاتقان والإبداع .

أولها (ش ١) يمثل رأساً^(١) من البرنز لشاب أو شابة من

(١) هذا التمثال موجود اليرم بمتحف لندن ، أهده الامام ملك الانجليز بمناسبة تنويحه

شركة مصر للفضل والنسيج

تقدم إليكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة في أثمانها...

رائعة في ألوانها...

فبادروا باخذ طلباتكم